مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:08/ العـدد01 جوان (2024)، ص.ص.255-266.

تجلّيّات الطّائفيّة، ووعي الكتابة السّردية في الرّواية العربية المعاصرة، رواية "عزازيل" ليوسف زيدان أنموذجا

The manifestations ofSectarianism andawareness of writing in the contemporary Arabic, novel 'Azazeel' by Youssef Zaidan

هادية زمور*
hadia.zemmour@univ-annaba.org
مخبر الشعريات وتحليل الخطاب،
جامعة باجي مختار- عنّابة-
(الجزائر)

د. سليمة لوكام
salima.loukam@univ-soukahras.dz
مخبر الدراسات اللغوية والأدبية،
جامعة محمّد الشّريف مساعديّة – سوق أهراس-
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/01 تاريخ القبول: 2024/05/27 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخّص:
تنفتح الرّواية العربية المعاصرة اليوم على كلّ الظّواهر والمتغيّرات الرّاهنة التي شهدها العالم العربي في الآونة الأخيرة، خاصّة فيما تعلّق بالانتماء الهوياتي الذي أفرز ظاهرة الطّائفية بصورها المتعدّدة، فأضحت تيمة محوريةً في الكثير من النّصوص الرّوائية العربية، فسلكها الرّوائي من زوايا مختلفة وفق توجّهات عديدة وعبر رُؤى متميّزة لإنشاء عالم سردي تخيّلي منفتح وواعٍ.
ومن هنا يهدفُ هذا البحث للكشف عن تجلّيات الطّائفية في الرّواية المعاصرة في تعاطيها مع هذه الظّاهرة بكلّ جوانبها، متوسّلا في ذلك آليات وجماليّات شعريتها السّردية، كما يتمحور حول تفكيك صيغ تمظهرها انطلاقًا من عناصر التّخييل الرّوائي، ووعي الكتابة السّردية التي تبرّز بدورها استنباط أهمّ الأبعاد المعرفية الجمالية، وقد اخترنا لذلك محاورة رواية "عزازيل" للكاتب المصري - يوسف زيدان- التي أثارت هذه المسألة من زاوية حادّة ودقيقة، حيث توصّلنا في الأخير، أنّ الرّوائي - يوسف زيدان- استطاع من خلال روايته هذه اكتناه عالم المسكوت عنه، بإعادة صوغ دلالاته الواقعية وِفْق التمويه السّردي.
كلمات مفتاحية: الرّواية، الطّائفية، التّخييل، وعي الكتابة، الجماليّة.

Abstract:
Contemporary Arabic literature today engages with all the phenomena and rapid changes witnessed by the Arab world in recent times, particularly concerning the identity affiliation that has manifested in various forms of sectarianism. Sectarianism has become a central theme in many Arabic novels, explored by writers from different perspectives and through distinct visions to create an imaginative, open and conscious narrative world.
This research aims to uncover the manifestations of sectarianism in contemporary fiction and how it dealt with this phenomenon, through the examination of the mechanisms and aesthetics of its narratological poetics. It focuses on deconstructing the forms it takes through the elements of fictional imagination and the awareness of narrative writing, which consists in extracting its essential cognitive and aesthetic dimensions. The chosen novel for this exploration is "Azazel" by the Egyptian author Youssef Ziedan, which critically and precisely

*المؤلف المرسل.

addresses this issue. Through this novel, Ziedan successfully delves deep in the unspoken, through reshaping its realistic meanings according to the narrative misrepresentation.
Keywords: *Novel, Sectarianism, Fiction, Narrative Awareness, Aesthetics.*

1. مقدّمة:

تسعى الرّواية العربية اليوم لمواجهة الواقع العربي بكلّ ما يحتويه من تناقضات متعدّدة وتحوّلات زمنية مسّتْ تاريخه، فقد أعادت صياغته وفق طرح فكري خاصّ بالرّوائي ذاته، تبنى ضِمنه رؤًى جديدة تتوافق مع الإنسان العربي، في ظلّ تغيّر القيم والبُنى الدّينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسّياسية، والثّقافية المتعلّقة بفكرة إعادة بناء الذّات العربية وتشكيل هويتها، وكان هذا الوعي بالكتابة يواكب التّحوّلات الكبرى والثّورات الأخيرة التي عرفها العالم العربي مع بدايات القرن العشرين؛ وبذلك أصبحت الرّواية جنسا أدبيا يطرح أيديولوجية ما تتماشى مع هذا الواقع، أو وضع احتمالات تدعو للإصلاح والتّغيّر، متّخذةً الوعي الفنّي المرتبط بالأداء الرّوائي طريقا يبلور كلّ الحقائق المزيّفة، والذي يعدُّ بدوره وسيلة تحاكي فيه وجودها، وبالتّعبير عن أهمّ القضايا الكبرى الرّاهنة لهذا الواقع، بأسلوب سردي يفصح عن المسكوت عنه ويحتفي بالمهمّش ويستحضر المُغَيَّب.

بذلك أصبحت الرّواية العربية مؤثّرًا جوهريا يهتمُّ بأسئلة المجتمع العميقة، سواءٌ أكانت دينية أو سياسية أو جنسية، مخترقا كلّ المضامين الشّكلية التي تصف واقع الذّات الإنسانية في علاقاتها الوجودية وتحوّلاتها المختلفة، ومن تلك الأسئلة: الطّائفية المتحدّدة في توجّهات عدّة لارتباطها بوجود فكر محدّد في بلدٍ ما يختلف عن الآخر إمّا عرقيا أو دينيا أو طبقيا أو حتى فئويا.

أضحت هذه المسألة الآن تثير نقاشات عميقة، ذلك لأنّها قضية جدّ مؤثّرة وحسّاسة في وقتنا الحالي، وقد قارب الرّوائي العربي المعاصر جوانب عدّة من هذه الثّيمة– الطّائفية -، وشخّصها في أعماله محاولاً تقصّي عوالم المضمر فيها عبر رؤيته ووجهته الخاصّة، بإعادة قراءة الأنساق التّاريخية، السّياسية، الثّقافية، الاجتماعية، وتفكيك كلّ المواقف الأيديولوجية وتعريتها، وإسقاط مركزية ثقافة الإلغاء والنّفي، ورصدها من عدّة منطلقات تكون إمّا بإبراز الصّراعات الدّينية وإثارة النّعرات المذهبية بين طوائفها مثلا، للوصول إلى فكرة التّعايش والتّسامح الدّيني أو عكس ذلك، بلغة روائية بليغة ذات صبغة شاعرية تضافر فيها التّخييلي بالواقعي. ومن هؤلاء الرّوائيّين العرب نجد "يوسف زيدان" في روايته "عزازيل" والتي عرّجت على مسألة مهمّة وخطيرة في تاريخ الدّيانة المسيحية، وتتبّعها تاريخَ الصّراعات الكنسية الكبرى، وأهمّ الممارسات الشّنيعة والعنيفة التي قام بها المتعصّبون للدّين المسيحي تجاه الشّعوب والأهالي المستوطنين المصريين، وبين الطّوائف الدّينية الأخرى، منها خاصّة اليهودية، وربطها بطبيعة كلّ المتغيّرات والتّحوّلات التّابعة من قضايا الواقع العربي الرّاهنة؛ ومن هذا المنطلق تطرح هذه الدّراسة العديد من التّساؤلات، من بينها: ما الطّائفية؟ كيف تجلّت في هذه الرّواية؟ وكيف تبدّى وعيُ الكتابة السّردية عند- يوسف زيدان- في طرحه هذا الموضوع؟

سعيًا للإجابة عن هذه التّساؤلات وغيرها، اعتمدت الدّراسة في تحديد ملامح الطّائفية وتجلّياتها في رواية– عزازيل- ليوسف زيدان، والكشف عن خصوصيتها وطرائق تشكّلها على المنهج الوصفي الاستقرائي، الذي يمكّن من إبراز هذه الظّاهرة، وشرح معارفها وتحليلها، وتوضيح المفاهيم والتّصوّرات حولها، التي تتّصف بالغموض واللّبس المؤرّق؛ وعليه فإنّ دراستنا تهدف إلى معرفة الأبعاد الدّلالية والجمالية لمدوّنة البحث، عبر تقصّي مؤثّرات التّعالق الفكري، ووشائج القربى بين الأديان، ومعرفة كيفية تعايشها مع بعضها البعض.

2. في مفهوم الطّائفية:

يكاد يشكّل موضوع الطّائفية مبحثا مركزيا في الدّراسات النّظرية والفكرية العربية المعاصرة، هذا لتعلّقها بدرجة كبيرة بقضايا المجتمع والأمّة، ولأنّها نابعة من الإحساس العميق الذي ينفي الشّعور بالانتماء إلى الأمّة العربية الواحدة المتماسكة، والانحياز إلى فئة ما، لتؤسّس لنفسها كلّ مظاهر الهوية الإنسانية لذلك الفرد، في كنف وجود الصّراعات الأهلية، وكلّ الأزمات الدّاخلية والخارجية للانتماءات النّاشئة، وبذلك تعدّدت مفاهيم الطّائفية وتنوّعت طروحاتها، كما تشاكلت، وتداخلت مع عدّة مفاهيم أخرى قريبة منها، فهي ليست كلاًّ واحدا متكاملا، وإنّما: "هي أغلب الأمور في

الكون والحياة والطّبيعة، متغيّرة من حال إلى آخر، غير ثابتة على حال واحد أفقيا أو عموديا، مما يتطلّب جعل الاستعداد الدّائم لمواجهة التّغيّرات حالة ضروريةً لا مفرّ منها"[1]، فهي بذلك مجموعة لعلاقات مختلفة المعطيات بين فئات بعينها، تدعو للحرص لإثبات المركزية.

من زاوية أخرى فهي "انتماء عُصْبَوِي إلى جماعة تجمعها رابطة العقيدة (وليس بالضّرورة الإيمان بهذه العقيدة وممارستها)"[2]؛ فهذا الانتماء يخلق في ثناياه روح التّضامن والدّفاع عن تلك الجماعة التي اختارت لنفسها أن تكون طائفة مستقلّة بذاتها وبين أفراد مجتمعها، وذلك بدافع الاعتراف بالهوية الفردية والتّعدّدية داخل المجتمع الواحد، لأنّ الطّائفية تُعدّ بحسب رأي برهان غليون:" سياسة حبّ البقاء والمصلحة الذّاتية والتّطوّر على حساب الجماعات الأخرى"[3]، فهذا النّوع من الممارسة يسعى بفعل عامل السّياسة، لاتّخاذ كلّ الانتماءات الدّينية والمذهبية والشّعوبية ذرائع لبسط نفوذها من أجل السّعي بكافّة الوسائل المادّية من أجل دوام السّلطة، كما أنّها تتحدّى كلّ العوائق الحقيقية والمفترضة التي تواجه ذات الطّوائف، وفقًا لعدّة مبادئ التي تؤطّر تلك الجهة الفئوية، بهدف الوصول لغاياتهم المرجوّة والمتمثّلة في بناء الهوية الفردية القائمة على القيم الكونية والبنى الثّقافية المتعارف عليها.

يرى في الصّدد نفسه-مهدي عامل- أنّ الطّائفية التي صنعت الطّائفة الواحدة ما هي إلاّ: " علاقة سياسة يحدّدها شكل تاريخي معيّن من حركة الصّراع الطّبقي، هو الذي تتحكّم فيه البرجوازية بهذا الصّراع"[4]، فتكوين هذه الظّاهرة تاريخيا، انتشر نتيجة الطّبقة البورجوازية التي فرضت إرادتها وبسطت نفوذها وسلطتها في معظم أنحاء العالم، لأنه كان لها أثر جليّ في إثارة الصّراعات الطّبقية بين أبناء المجتمعات داخل الدّولة الواحدة.

وعلاوةً على ذلك فإنّ جذور هذه الظّاهرة ممتدّةٌ في عمق التّاريخ، وتجلّت بصورة أوضح حديثا، كما كان سبب بروزها تفاعل العديد من العوامل الدّينية، السّياسية، الاجتماعية، الجغرافية.

تماشيًا مع ما تمّ ذكره، فإنّ الطّائفية بتعدّد دلالاتها المفهومية، تحمل في طياتها إلى نوع من نمطية الرّؤية المتكوّنة من مجموعة الأحداث والأفعال الذّاتية تجاه الآخر النّقيض، الذين يشكّلان علاقة تندّد بقوة السّيادة، والمغالاة في السّيطرة، لذلك يمكن اعتبار مقولتي الأنا والآخر في هذا المضمار طرفَان أساسيان لهذه الظّاهرة، لارتباط بعضها البعض في البحث عن الهوية وتجسيد جميع مقدّساتها، في ظلّ تنامي كلّ الظّواهر والأزمات المتفاعلة فيما بينها، وبشتّى أنواعها التي أدّت لنشوء الطّائفية، وبرزت من خلالها الصّراعات الدّينية والعرقية والمذهبية والفكرية، وكذلك أزمة الإرهاب والاقتتال الدّامي بين الأهالي، وإلى تهميش أبناء الأقلّيات واضطهادهم، لأنّ" النّزاعات والأعمال الوحشية في العالم تتغذّى على وهم هوية متفرّدة لا اختيار فيها. وفنّ بناء الكراهية يأخذ شكل إثارة القوى السّحرية لهوية مزعومة السّيادة والهيمنة تحجب كلّ الانتماءات الأخرى"[5]، هذا الذي تحرّكه اتّجاهات استعلائية وفق مخطّطات محكمة تتبنّى مصالح فئوية تسعى لخدمة ذاتها.

قد تنوّعت مصادر الطّائفية و تداخلت مع عدّة حقول معرفية، وتباينت آلياتها برصد معالمها، وفهم ما تقوم عليه في الواقع الطّبيعي لتأتي الكتابة الرّوائية العربية، وتعيد إنتاج الدّلالة بمحاورة الواقع من جديد في صورة تكشف عن عمق المعنى، والتّعبير عن الممكن لدى المجتمعات العربية خاصّة. إذًا كيف تعاملت الرّواية العربية المعاصرة مع هذه المسألة؟

3. الرّواية و الطّائفية:

بعد فشل التّجارب العربية التي دعت للوحدة العربية، في فترة الخمسينيات وما تلتها، من أجل إثبات الهويّة القومية، تغلغلت وتبلورت الظّاهرة الطّائفية، مخلّفةً صراع الهويات الصّغرى للمجتمعات العربية، كما تبدّ تطوّرها أكثر بعد التّحوّل التّاريخي الأخير المضطرب للعالم العربي الذي أفرز الحركات الثّورية، وغيرها من السّياقات الأخرى التي أملتها مرحلة ما بعد الحداثة، ومن هنا ظهرت فكرة الطّائفية في نصوص روائية عربية، رغم أنّ هذه الأخيرة" شُغلَت مبكّرا جدًّا بالصّراع ضدّ المستعمر، فقد كان لها مثل هذا الاشتغال بالصّراع الأهلي في الفضاء العربي، حيث اشتبكت عناصر السّلطة والحزبية والطّائفية.. وكان ذلك قد تركّز في الرّبع الأخير من القرن العشرين"[6]، وذلك بدافع اكتشاف اللاّموجود من الواقع العربي والمتمثّل في إعادة صياغة الدّلالات الخفية بوسائل فنّية، وتشريح كلّ الممارسات الدّاعية لصوغ هوية جديدة، ذات الامتدادات السّياسية وما تبرزه من شعارات تلفيقية تدافع بها عن الدّين والمذهبية لأن من خلالها أحدثت شرخا كبيرا في تكوين الهوية العربية.

كما أخذ طَرحُ موضوع الطّائفية في الرّواية العربية عدّة أشكال متباينة، فأكثر حضورها كان ما تعلّق بتوظيف الجانب الدّيني، معتمدة في ذلك نقل كلّ أشكال التّهميش والإقصاء التي واجهت الهويات الدّاخلية للأفراد، كما نظرت إلى تلك الفئات الانحيازية، والقائمة على فكرة التّعدّدية، والتي تشكل في مجملها خطابات تدعو للطّائفية- في إحدى توجّهاتها - بأنّها هوية فرعية متكاملة، تحمل أيدولوجية مغلقة بصيغ معرفية، تنادي بالحوار والمصالحة الإنسانية، وتقبل الغيري، ونبذ التّعصّب والنّزاعات الدّامية، لأنّه "من المهمّ في الانتماءات القهرية: الانفتاح والانسجام.. فإذا كان الواحد منتميا لجماعة مثلا، فلا ينبغي لذلك الانتماء أن يكون معزولاً عن الانتماء للقبيلة والوطن والأمّة والإنسانية جمعاء"[7] فالتّفاعل والانصهار بين التّنشئة الصّاعدة يساعد على إدراك المشاعر والحفاظ على أساسيات المضامين الفكرية، و العقائدية للآخر، والاعتراف بحقوق الأقلّيات من حيث مستوياتها المرجعية، منها خاصّة الاجتماعية والثّقافية، فيلجأ الرّوائي نفسه لإدراج علاقات فكرية متخيّلة بين شخوص عمله السّردي تنادي بذلك، وأخرى تنفي ذلك، فيتولّد عنها العنف أو التّطرّف بين الطّوائف، أو حتى التعصب الديني الأعمى لمذهب ديني معيّن، ممّا يؤدي إلى التفرقة والانقسام بين أفراد المجتمع، وغيرها من الحالات الأخرى، التي تتفاعل معها كلّ العتبات النّصّية ،فتشكّل صيرورة، وصورة الخطاب الرّوائي؛ وبذلك يتّضح موقف الأديب من توظيفه لهذا الموضوع، إمّا دفاعه عن طائفة مضطهدة، أو ولاؤه لطائفة على حساب أخرى، أو التّعريف والتّشهير بسلوكيات الطّوائف وعاداتهم للقارئ.

من بين الرّوايات العربية التي تجلّت فيها موضوعة الطّائفية بامتياز، رغم الاختلاف بين الأدباء في طرحها بسبب تعدّد المرجعيات والمنطلقات الفكرية، نذكر منها على سبيل المثال - لا الحصر- رواية: (دروز بلغراد) للعراقي 'ربيع جابر'، (يا مريم) للّبناني 'سنان أنطون'، (اليهودي الحالي) لليمني 'علي المقري'، (في قلبي أنثى عبرية) للتّونسية 'خولة حمدي'، (ساق البامبو) للكويتي 'سعود السّنعوسي'،(إسطاسية) للمصري' خيري شلبي'،(الآخرون) للسّعودية 'صبا محرز' وغيرهم. وتفرّع من هذا الموضوع عدّة قضايا أخرى، كالفوارق الاجتماعية، الاستبداد السّياسي، الفتنة الأهلية التفوّق العنصري، القهر الذّاتي، الغيرية، الاغتراب، المنفى.. وهذا لأنّ الرّواية العربية في هذه المرحلة وبالضّبط خلال الألفية الثّالثة ومع تيار العولمة، ومرحلة الحداثة، وما بعدها، أصبحت توصف بأنّها "بنية تواجه أمرًا واقعا، إذ تعترف بأنّنا شعب ما بعد استعماري، ثقافته هجينة"[8]؛ فخصوصية الهجنة الثّقافية المنبثقة عن هامش الهوية الثّابتة للوطن الواحد، خلقت إضاءة نوعيةً للخطاب الرّوائي المعاصر الذي استثمر موضوع الطّائفية بكلّ جوانبه، وكلّ ما يحيط بها من قيم جديدة عبّرت عن الاتّصال المباشر الذي يحمل تماهي المعنى الذّاتي الهوياتي المتكوّن بالدّرجة الأولى من الخصائص الثّقافية المتمازجة للشّعوب كالمعتقدات، العادات، التّقاليد، التّاريخ، السّلطة العرقية، اللّغة، الدّين.. وعن تخطّي كلّ الحدود التي غيّرت النّظرة للأشياء والعالم، والرّفض المطلق لكلّ التّصنيفات والتّأسيس لمنظومات انفتاحية جديدة تنادي بالهجنة في مقابل النّقاء في مختلف الميادين؛ وتلك المضامين الاستراتيجية التّابعة من الواقع الفعلي، وما تضمّنته من حساسيات جمالية، حملت في طيّاتها حقيقة فنيّة جماليّة، متأتّيةً من العوالم الدّاخلية المتخيّلة للمبدع.

4. الطّائفية ووعي الكتابة في رواية "عزازيل" ليوسف زيدان:

إنّ سعي التّجارب الرّوائية العربية بتناولها ظاهرة الطّائفية أكسبها قيمة مميّزة، وذلك راجع لقدرتها الاستيعابية في خلق اختزالات انزياحية وتقنيات استعارية تحاول من خلالها الرّبطَ بين الهويات الكبرى والانتماءات الصّغرى بكلّ حيثياتها وجزئياتها، موضّحة في عرضها لذلك مسارات الصّراع الإنساني الذي غالبا ما كان يبحث من خلالها عن كينونته الجماعية وحرّيته الفردية التي تغلّفها نزعة الفهم المنغلق، حول تأكيد تماهي وتواصل الهويات المتعدّدة بتعدّد مستوياتها الرّامية للتّنوّعات المتبادلة فيما بينها، وهذا ما انجرّ عنه عجزٌ يقيني وعلاقات معقّدة ومصائر ظالمة للوجود الإنساني المستمدّة من التّاريخ. وعنه انطوت مظاهر واختلافات تدعو لإثارة النّعرة الطّائفية خاصّة في المجتمعات المتعدّدة الدّيانات، فأضحت قيمة بارزةً داخل النّصّ السّردي الرّوائي، ورواية "عزازيل" لا تخرج عن هذه الدّائرة في إعادة تركيب تمفصلات لمشاهد حقيقية ذات مرجعيات تاريخية للمجتمعات المصرية القبطية القديمة ذات المنابع الدّينية المسيحية، وابراز صور دالّةٍ تتعلّق بالتّقابل الثّقافي الفكري والتّعايش المشترك، وأخرى راصدة فتنًا ضاغنة حملت في جعبتها أوضاعٌ مأساوية بين طوائفها خلال القرن الخامس ميلادي، التي اختار– يوسف زيدان- روايتها بصيغة السّيرة

الذّاتية، وبأسلوب موضوعي دقيق، عبّر فيه عن تفاعل العلاقات التي واجهت عمق الأطراف المختلفة دينيا وفكريا، ومن هنا يمكن استجلاء تجليّات الطّائفية وتحليل أبعادها عبر العناصر الآتية:

1.4. الوعي بإعادة كتابة التّاريخ:

نشر يوسف زيدان روايته هذه سنة 2008م وفاز عنها بجائزة البوكر العالمية للرّواية العربية سنة 2009م، وكما أشرنا سابقًا أحداث الرّواية بتأطيرها الزّمني تعود بالضّبط إلى منتصف القرن الخامس الميلادي، وهو تاريخٌ مفصلي عرف عدّة خلافات قاسية وفي غاية الخطورة بين كبرى المجامع الكنيسية المسيحية، ليصل إلى أوساط المجتمعات المصرية، ثمّ إلى أنحاء الوطن العربي، والسّبب الرّئيسي في هذا كان حول طبيعة وميلاد يسّوع المسيح سنة 431 الميلادية، ومنه بدأ اهتزاز عنيف في معالم الدّيانة المسيحية عمومًا وبمصر خاصّة، وهي حادثة تاريخية هامّة وحاسمة وفي الآني ذاته مهمّشة من حياة الشّعب المصري.

لذلك أعاد- يوسف زيدان- إضاءة هذه الفترة القصيرة من جديد بإخضاعها لفنّية التّخيّل التّاريخي، وخلق حيلاً سردية متخيّلة غير موثّقة في المصادر التّاريخية، فأضحى هذا الحدث مركزيًا في الرّواية وعليه انبت كلّ أحداثها، وصار مادّةً مغذّية لمختلف عقبات الحياة وآلامها وآمالها، وكلّ الأوضاع القهرية والمسائل الرّمزية المضطهدة التي انبثقت تحت سلطة رجال الكنيسة المسيحية بدرجة أولى، مواجهة بها كلّ من لا يحترم أركان ديانتها أو يخرج عن دائرتها الفكرية، و من هنا برز الاحتقان الطّائفي وظهر التّحيّز العقائدي وصيغت المبادئ الإنسانية مشكّلةً مفارقات كوّنت عالمًا سرديًا عميقًا يزخر بتقنيات جمالية، أبرزها التّصوير المشهدي الدّقيق لطبيعة الصّراع الدّيني المسيحي الضّاغط.

فتقوم الرّواية بتقديم عرض سيرة الرّاهب القبطي المسيحي اسمه" هيبا" المولع بدراسة الطّبّ والبحث في علم اللاّهوت، مدوّنا جلّ لحظات حياته بنفسه وما عصف بها من مشاهد مزرية حول الأوضاع الكنيسية والاجتماعية، حتى الثّقافية فالشّعبية، ومواطن الحبّ والتّآلف التي صادفته فتعايش معها وغيّرت كآبة الحياة لديه. وفي رحلة التّدوين هذه غالبا ما كان يضع حلولاً لعديد من المشاكل التي كانت تواجهه، رغم المخاوف والنّزاعات الدّاخلية القاسية التي كانت تشكّل له صدمات نفسية محزنة جرّاء فعل الكتابة وما حلّ به من أمور الدّنيا التي لا يجب عليه الغوص في ثناياها، لأنّها تعدّ من الأمور المحرّمة بصفته راهبا كنسيا. إلاّ أنّ المحرض الأساسي- عزازيل- الّذي دفعه إلى فعل التّدوين والاعتراف بكلّ ما شاهده ورآه، وهو شخصية وهمية متخيّلة لا أساس لي تواجدها في الواقع.

طرح يوسف زيدان في نصّه الرّوائي هذا إشكاليات جدلية أكّدت على سياقات تاريخية من خلال إضفاء خصوصيات واقعية رصدت خلافات لاهوتية صنعت تعدّدية دينية مصاغة بصبغة ثقافية تدور في فلك فكرة البحث عن أصل الإيمان القويم وروح الوجود الإنساني الأصيل؛ وهذا ما رسمته مسار الشّخصيات من مثل "القسّ نسطور" هذا الرّجل العليم المتشبّع بثقافة روح الدّيانة المسيحية، فيقول:" المسيح معجزة ربّانية، إنسان ظهر لنا الله من خلاله وحلّ فيه، ليجعله بشارة الخلاص وعلامة العهد الجديد للإنسانية"[9]، كما كان في أغلب الأوقات يقدّم أفكاره وآراءه الذّاتية الفذّة منها ما ارتبط بطبيعة المسيح وألوهيته، إلاّ أنّ رجال الكبار من الكنيسة كانوا يرون تعاليمه كافرة وأفكاره غير صائبة، ما دفعه لاتّهامه بالهرطقة ثمّ عزله. وبالمقابل نجد المتعصّب للدّين - أسقف الإسكندرية-'كِيرُلّس' والرّافض لكلّ الممارسات التي تدعو لحماية أوضاع الكنائس والدّفاع عن الانتماء للدّيانة المسيحية الحقّة، ولكنّه يراها عاملاً من عوامل تشويه العقيدة والإساءة لها، وأنّ كلّ ما ينشره يعتبر مصدر الإيمان الصّحيح، ويمثّل مصلحة الجميع، ويحفظ تصوّراتهم وتميّزهم، وغير هذا يعدّ مجرّد أوهام وتكهّنات، فيقول في رسالة له على لسان 'هيبا' الموجّه إلى السيّد 'نسطور' و أتباعه "إنّ الذي يخالفه فيما يقرّره من عقائد أُرثوذكسية قويمة: فليكن ملعونا، ليكن ملعونا .. وعلى هذا النّحو سارت الفقرات الأخيرة الاثنتا عشرة الأخيرة من رسالة 'كِرِلّس' مؤكّدة تلك اللّعنات التي انقدحت شرارتها من كنيسة الإسكندرية، ثمّ تأجّجت نارُها وهاجت، حتّى عمّت العالم بالحرائق"[10]، وهذا الموقف يمثّل دعوة ضمنية توضّح خططه القمعية وتدعو لإثارة مواجهات تدعو لإثارة الفتنة الطّائفية، كما أنّ" ذلك سوف يثير مزيدًا من النّزاع، وعديدًا من وجوه العداء، وسوف يؤجّج نار الاختلاف والفُرقة بين الكنائس الكبرى"[11]، وهذا ما يجعل العلاقة بين كلّ الأطراف متأزّمةً وفي توتّر مستمرّ باسم الدّين.

فالمبالغة في طغيان تعاليم الكنيسة المسيحية الغاصبة من قِبل رهبانها الكبار، من مثل الرّاهب –كِرِلّس- أسفر عن خلْق أوضاع عنيفة، وفي غاية الخطورة على الأطراف الأخرى، منها مقتل الفيلسوفة - هيباتيا- بطريقة وحشية،

بسبب ما كانت تقدّمه من محاضرات فذّة في الفلسفة والمنطق والرّياضات، فكانوا ينعتونها بالشّيطانة الكافرة: "ويقولون إنّها تشتغل بالسّحر، وتصنعُ الآلات الفلكية لأهل التّنجيم والمشعوذين."[12] وذلك الموت الرّمزي لم تسلم منه- أوكتافيا- هذه المرأة الوثنية الحاقدة على كلّ المسيحيين وعقيدتهم التي تعتبرها خرافاتٍ زائلة. فلقيت نفسها جثّةً هامدة وبطريقة جدّ مأساوية حينما أرادت أن تخلّص - هيباتيا- من حتمية الموت القاهرة التي عصفت بروحها البريئة.

تأزّمت الأوضاع وتدفّقت حدّتها مشكّلةً انقسامات اجتماعية في غاية المواجهات العدائية، مخلّفة أقسى أنواع القهر والظّلم، وأشدّ مظاهر التّعصّب والعنف بين الطّوائف المسيحية الكبرى، والتي صاغها البطل 'هيبا' بكلّ حيثياتها الدّقيقة، واضعًا إياها في تقرير تفصيلي عن كلّ الواقع الذي عايشه وتعايشت معه بقية الشّخصيات الأخرى للعمل محاولا فيه الثّورة والتّغيير على ما هو قائم، ولكن بصوت صامت دفين؛ الذي عمّق صفو الالتزام بالكلمة من أجل بلوغ أهدافه ومساعيه، حيث تداخلت مشاعره الإنسانية حينما سلّط الضّوء على الفئات المضطهدة وصراعاته النّفسية المرتبطة بعذاب الزّمن وصيرورة اختلافات الجماعة وتفكيرهم، وبما في ذلك معايشته لعلاقات عاطفية وأخرى حميمية عانقت جمال وذهنية المرأة، وذلك ما حدث مع – هيباتيا وميرتا- ولعلّ هذا ما أعطى الرّوايةَ بُعدها الإنساني القيّم المتّصل بالعوالم المتخيّلة للكاتب - يوسف زيدان- خصوصًا أنّ مجرى هذه " الأحداث تتنزّل عند منعطف ثقافيّ وتاريخيّ تمثّله بقايا دين عتيق، وطلائع دين جديد."[13] وما ينبغي التّأكيد عليه هو أنّ ما قدّمه السّارد على لسان 'هيبا' من مشاهد بالغة التّأثير تخصّ هذا المضمار، أسّست لمبدأ التّعايش والثّقافة والفكر والحبّ ورصد كلّ المواجهات، وتبقى إشارات تاريخية تعجّ بالدّلالات الرّمزية المضيئة للتّاريخ والواقع معا، وإطلالة جوهرية لافتة على الحقيقة المجسّدة وأيضا رؤية استشرافية تُوهج عتمات الرّوح الباطنية.

2.4. تشظّي الهوية وإثبات الذّات:

تأسّست رواية (عزازيل) على معطى هويّاتي متشظٍّ يتعلّق بفكرة تحديد الهوية الدّينية والإيمان بها، ولكنّه لا يركن إلى أساس واحد ولا إلى مُؤكّد ثابت، فيحتكم لنمط نموذجي مشترك منطوٍ تحت إثبات مركزية المركز التي تثبت الشّعور بفاعلية الهوية الواحدة الدّائمة، بل بنحوٍ يتحدّد في عملية البحث المتكرّرة عن أصل جوهري جديد يمنح الذّات هوية تمثّلها وتكون لها النّموذج المتوازن، ومن خلاله تعرف وجودها وتكتشف، كما يجعلها تكتسبُ تميّزها المتطوّر القابل للتّغيّر والتّبدّد المستمرّ، وهذا نتيجة تماهي الحدود الإنسانية الجمعاء وتفاعلها حسب كلّ الثّوابت والمتغيّرات الاجتماعية المحيطة بها، فيحدث ذلك من خلال الإحساس بالانتماء للهوية المكتسبة التّابعة من الاختلافات الحاضنة لمسارات الجماعة والأفراد، وبحسب الطّريقة والظّروف الحياتية التي اتّخذوها لكي يعيشوا على آفاقها.

من هنا انتقل البطل 'هيبا' عبر تغيّر فضاء الزّمان وإثارة لجماليات المكان من دائرة الهوية الوطنية والمتمثّلة في خروجه من موطنه الأصلي ومسقط رأسه– أخميم- المتواجد في صعيد مصر- وبكلّ ما فيها، إلى الإسكندرية الحاضنة لعدّة ثقافات متنوّعة، ثمّ شمال سوريا وصولاً إلى القدس الأبية، فالأوطان العربية، إلى جغرافية تخيلية صادمة تتبدّى في نقطة التّحوّلات القاسية التي تكلّلت بصراعات نفسية وأزمات جسدية طغى عليها الاعتداء الدّامي الشديد، وذلك عن طريق تفكيك نواة الهويات الدّاخلية للذّوات ووقوفه على أدقّ تفاصيل شبكة العلاقات التي رسمها مع معظم الشّخصيات الأخرى الحاضنة للتّص، بكشف أسرارها الدّفينة عبر كلّ الممارسات الواعية الصّادرة عن المؤمنين بأصل الدّيانة المسيحية، واللاّواعية التي كانوا يقوم بها المتعصّبون لهذه الدّيانة. فهذا التّنامي المتشابك لذاته أفقده إيمانه بهويته الدّينية وزاد في شكوكه حولها، وعدم الرّغبة في التّواصل والشّعور بالعدمية في كلّ شيء بسبب إكراهات الواقع، ممّا جعله يعيش حالة اغتراب وجودي وتشتّتٍ لكيانه الدّاخلي، فهذا دفعه لإثبات ذاته وتجاوز الانتماءات المقيّدة، فيقول: "أنا عبدك المخلّص، الحيران: هيبا الرّاهب، وهيبا الطّبيب، وهيبا الغريب.. على ما يدعوني به النّاس في بلاد غربتي."[14]

ففي خضمّ هذا الانشطار الحاصل لدى - هيبا- والغربة التي يعيش في كنفها، والإحساس بالضّياع جعله في دوامة التّيه، والوقوع في مغريات النّساء وملذّات الشّغف الجنسي وشهوات الحياة، وهروبه منها بصفته كاهنًا كنسيا فيجد نفسه في صدام مع حرّيته الفردية، وقيد المؤسّسة الدّينية؛ الأمر الذي دفعه إلى طرح الكثير من التّساؤلات بهدف البحث الدّائم عن الخلاص الإنساني، وذاته الأصيلة البعيدة عن كلّ التّصنيفات، ولكنّها تبقى مرتبطةً بواقعية

المجتمع المصري وحسّه الدّيني فيقول: "أمضيت ليلة ليلاء، تنازعتني فيها كلّ متناقضات الأفكار: هل أنسى أنّني رأيت الأستاذة، وأحصر همّي فيما جئت من أجله، ثمّ أعود إلى بلادي الأولى سالمًا غانما؟ أم أهجر الكنيسة للأبد؟.. هل أخرج غدًا صباحا، ولا أعود أبدا؟.. لستُ على كلّ حالٍ معتقلاً بين هذه الجدران. ما معنى بقائي هنا؟..."[15] فالظّاهر أنّ المعاناة التي سيطرت على ذاتية- هيبا- رسمت تيّار الوعي الذي يعيد صياغة كلّ اللّحظات والمحطّات الآسية، لأنها تقدّم بدورها رؤية استنباطية عميقة تصبح فيها الذّات هجينة، تثير الجدل وتحمل العديد من الاحتمالات والاستفهامات، فلا يجد لها – هيبا- نفسه إجاباتٍ محدّدة ومقنعة، فيقول: "لمن أعود إذا رجعت إلى بلادي الأولى؟.. وما بلادي الأولى؟ أهي قرية عمّي الذي ينتظر الموت؟ أم قرية أبي التي لن يعرفني فيها أحد؟ أم القرية التي استقرّت فيها أمّي؟ أمّي التي تنام كلّ ليلة في حضن رجلٍ آثمٍ يداه.."[16]

فالعالم الخاصّ الذي سرده الرّوائي يوسف زيدان وعاشه بطله- هيبا- حفّزه لإعادة صوغ ذاته من جديد وعبر رؤيته الخاصّة التي تجسّد خصوصيّته وتحقّق انتماءه الوجودي، نحو اتّجاه يرسم له تواجده الوجداني الروحي، و منطلقه التّاريخي الأصيل والفكري والدّيني والاجتماعي، رغم مقاومته لفتنة الذّات الدّاخلية، فيقول: "أنا الآن هيبا الرّاهب، ولستُ ذاك الصّبي الذي وشت أمّه بأبيه، فقتلوه أمام ناظريه. لست اليافع الذي ربّاه عمّه في نجع حمادى، ولا الشّاب الذي كان يومًا يدرس في أخميم...أنا الآخر المؤيّد بالملكوت الخفي، وأنا المولود مرّتين."[17] فبعدَ الأزمات التي انتابته خلال رحلته وتزايد الصّراع مع الذّات صنعت منه إنسانًا آخر جديدًا يسعى للتّصالح مع ذاته أولا، ليطفئ نار الحرب الباطنية التي تشعل روحه أينما حلّ، ثمّ إعادة الاعتبار الإنساني لها، وهذا ما زاد وعيَه بكلّ الأمور المحيطة به، فجعله يتجاوز كلّ ما حلّ به من محنٍ قاسية ونكباتٍ قاهرة.

فهذا التّعقيد المتشظّي للهوية والمتحرّر من هيمنة الانتماء المتجذّر في أعماق الرّوح وآلامها، والكشف عن ملامح الرّوح بتشكيل رؤيةٍ للذّات الإنسانية، والتي مثّلت سعي البطل هيبا في فضح نوايا الآخر المتسلّط الذي مثّل في الرّواية رجال الكنيسة ودسائسها، وتشابكه معهم، وبالتّالي كشف كلّ الملابسات في المرحلة الرّاهنة، فهي باختصار قضية إثبات الذّات واكتشافها في ظلّ تشتّت الهوية الأصلية نتيجة التّعصّب العقائدي والتي سببها القوّة المتعالية لسلطة الأفكار المنغلقة، والممارسات المشحونة بالمصالح الفئوية، فكلّ ذلك يهدف للخروج من المآزق الطّائفية وتجنّب الوقوع في أوهامها وقضاياها الشّائكة، والابتعاد عن التّشنّجات المذهبية، التي تدعو لإحداث انشطار هوياتي ومن خلاله يثبت واقعيته المتلاشية، غير أنّ هذا التّشظّي الهوياتي" سمة أساسية في البناء السّردي: وهو المعادل الموضوعي فنيًّا وسرديًّا لحالة التّشظّي الفكري."[18] كما يظلّ محورًا مستحوذًا على الاهتمام في هذا العمل الفنّي كلّه.

3.4. الدّين والعنف الطّائفي:

تتميّز رواية – عزازيل- بقدرتها على استنطاق المسكوت عنه، وذلك بتركيزها على دواعي الفهم المغالط للدّين المسيحي ونشر تعاليمه القمعية المنافية لأصوله وأركانه، فنشب عن ذلك عنف طائفي في غاية الخطورة وتكوّن منه صراع عدواني وأزمات اجتماعية، أنهكت صمت الشّخصية المسيحية العامّة المضطهدة لولائها التّامّ لرجال الكنيسة وتعصّبهم الحادّ وتبنّيها لتوجّهم وعقيدتهم الظّالمة، ممّا أدّى للسّيطرة أفكارهم المنغلقة، واستحواذهم على عقول الأغلبية منها، وعدم التّحرّر من قيود الدّيانة المسيحية القاهرة ومنظومتها القاتلة، لكن دون البوح عمّا يجول في نفسها للعلن، والاكتفاء بتطبيق أوامرها في صورتها الخفية السّلبية، كما أنّها لم تستطع بذاتها تجاوز تعقيدات الحياة وتشابك معطياتها على أساس أنّ الدّين في أحد جوانبه يرتبط بالمستوى الشّعوري الذي يختزل فكرة الهوية من منظورٍ يدعو للتّسامح ونشر المحبّة ويؤسّس لمرحلة جديدة على ما يتوافق مع قيمها ومبادئها الحقّة التي تُلغى فيه كلّ النّزاعات، فنُسجت على أعقابه شرارات ساخنة شديدة التّعقيد ألهبت مسار أحداث الرّواية، وتيارات مشحونة بالعديد من الخطابات المضمرة التي تسعى لتفكيك مبدأ الوعي الفردي الزّائف، الذي يتبنّى النّبرة البريئة وكشف كلّ المتناقضات فيه بتعرية الأصوات الاستعلائية منه، وتسليط الرّؤية على العنف الطّائفي المحيط بكلّ الأنحاء.

فحمّل- يوسف زيدان- هذه المهمّة لبطله- هيبا- فكان فيها الشّاهد والمشاهد والمؤثّر والمتأثّر والتّائه والفاقد، حيث شقّ بطريقه نحو اتّجاه عميق يوضّح فيه مدى بشاعة رجال الدّين المسيحيين في ارتكاب الأفعال الإجرامية وإزهاق الأرواح البريئة وسفك الدّماء وتلذّذهم بفعل ذلك لعوام النّاس الذين يعيشون في أنحاء مصر وضواحيها، بأوامر من رجال الكنيسة المسيحية وولائها، ويتبيّن لنا ذلك في حديثه مع الرّاهب 'نسطور' حينما كان يصف له حادثة مقتل أبيه،

وكلّ كلماته مليئة بالحزن والأسى لفقدان والده وموته بتلك الطّريقة البشعة، وكلّ أحاسيسه تغلّفها نزعة الحقد والكراهية تجاه هؤلاء المسيحيّين، فيقول:" سحبوا أبي من قاربه، وجرّوه على الصّخور ليقتلوه طعنًا بالسّكاكين الصّدئة التي كانوا يخبّئونها تحت ملابسهم الرّثّة. كنت أزوم متحصّنا بانكماشي في زاوية القارب، وكان أبي غير متحصّن بشيء، يصرخ تحت طعناتهم مستغيثًا بالإله الذي كان يؤمن به."[19]، فهُنا تتّضح أزمة العنف الطّائفي التي أصبحت خطرًا يهدّد الحياة البسيطة، كما أنّها مثّلت اتجّاهًا وحشيًا تسوده نزعة هدر الدّماء بين فئات أبناء الوطن الواحد، والذين هم من هوية دينية واحدة، وهذا ما حدث مع والد هيبا والكثيرين من أمثاله الذين قتلوا على أيادي سكّان المسيحيّين لمدينة الإسكندرية العظمى وما تنفرد به من تنوّع الحضارات والثّقافات، غير أنّ: " أهل الإسكندرية لا يرحمون، ولا يخشون عقابا على أفعالهم. قتلوا هيباتيا على مرأًى من سكّان المدينة، ولم يُعاقبوا. وقتلوا قبلها أسقف مدينتهم جورج الكبادوكي، ومزّقوه في الشّارع الكبير."[20] فاختيار العنف بأنواعه والغلوّ فيه من قِبل الأقلّيات المسيحية الإسكندرية، وفي ظلِّ غياب العدالة وقانون الرّدع الذي يعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه.

لم تقتصر ظاهرة العنف مع أبناء الدّيانة المسيحية، بل كان العنف أشدّ قوّة مع الدّيانات الأخرى منها اليهودية وكذلك رفض كلّ الوثنيين المتواجدين في مصر وغير المعتنقين الدّيانة المسيحية، وبرزت هذه المواجهات العنيفة في مدينة الإسكندرية - الحاضنة لمختلف العلوم والانفتاح على جميع المجالات- في خضمّ انتشار عهدٍ جديد للدّيانة المسيحية التي ترفض كلّ المسائل الملكرة، لتقضي على كلّ المعتقدات الخاصّة بالوثنية القديمة وأتباع الدّيانة اليهودية لأنّها كانا منتشرين بصفة واسعةٍ في المدينة. فهذا الظّاهر، أمّا الباطن فيومئ بالاختلاف والقسوة واستعمال طرق وحشية ضدّ الآخر المختلف عنه دينيا، وكأنّ الدّين هنا يبدو تجسيدًا ثقافيا ينحو نحو اتّجاهٍ سياسيي، لا الإيمان بطبيعة العقيدة المسيحية، فيصبح بهذا الأساس كلّ ذلك مرادفًا للعنف، فيتجلّى ذلك في حديث كاهن الكنيسة الكبرى "بأخميم" مع هيبا فيقول: " فصارت المدينة بعد انتشار ديانتنا مفتوحة للجميع. ما زلت أذكر هيئة الكاهن وهزّة رأسه وهو يضيف يومها، بالقبطية المصرية، ما معناه: سيأتي اليوم الذي لن نسمح فيه للوثنيّين، ولا لليهود، بالمبيت. لا في الإسكندرية ولا في المدن الكبيرة كلّها.. غدا سوف يسكنون جميعا خارج كلّ الأسوار."[21]، فهنا تتّضح مواطن الزّيف ودلالات العبث القهرية المتجسّدة في التّاريخ الوحشي للإنسانية، وبمظهرها الدّيني المتغيّر حسب الحاجة وما يخدم المصالح، فنتج عنه خطابات عنيفة بالغة القسوة تتشكّل عبر نمطية الاختلاف؛ فنلمس ذلك من خطاب هذا الكاهن الذي كان يقيم بمدينة مصر، ثمّ انتقل إلى الإسكندرية، فهناك تغيّر كلّ شيء بعد المعاناة التي كان يعيشها، فسلّط البؤس على غيره. فهذا التّأسيس المتناقض المنطوي في فكرة الأفضلية يهدف إلى تغيير النّظرة لكلٍّ من الوثنيّين واليهود، ويسعى للتّنكيل بفعل العنف والقوّة تجاه هؤلاء. وهذا ما أبرزه- هيبا- لهذه الظّاهرة التي تحمل البعد المأساوي فيقول: "الاغتصابُ والعنف ينتصران أمام عيني، والخصامُ والنّزاعُ يسودان كلّ مكان."[22] فالعنف الطّائفي يتغذّى على مظاهر القتل العمدي، كما يستغل الدين لتحقيق أهداف ومصالح سياسية، ومادّته الأساسية انبثقت من نوات التّعصّب الدّيني.

على هذه الخطّية السّردية تتابع الرّواية في تصوير وخلق المواقف الحادّة التي من شأنها أن تبرّر الاضطراب المستمرّ المنبثق بين أتباع الدّيانة المسيحية، وبين الدّيانات الأخرى من اليهود، المسلمين، وبين التّعدّد الإثني من الأقباط، اللاّهوت، العقائد اليونانية، التّصوّرات الإثنية المصرية القديمة، فتجمّعا في صورة واضحة من خلالها تكشف أهمية الوعي الدّيني الذي يربط نفوس المجتمعات ويوحّدها فلا يفرّقها، كما يظلّ الدّين قيمةً ساميةً من شأنه أن يلغي كلّ الحدود الفاصلة، والمطالبة بحقوق الأقلّيات، وكما يقرّ بتقبّل التّعدّد الدّيني للآخر ويختزلها في صورة إنسانية واحدة فيصنع مفارقات الحياة وتآلفها، وهذا ما أكّدته السّياقات السّردية للرّواية، وبذلك" فتبقى قيمة الرّواية فعلاً في كونه جنسا أدبيا لا دين له ولا ملّة، أي أنّه لا يحرّض بانتماء عرقي أو طائفي ولا أيديولوجي أعمى."[23] كما كانت اللّغة السّردية فيها آلية تحرّرية من الحقائق المزيّفة وخبايا المجهول، برفضها كلّ القيود المسيطرة على الهوية الدّينية المصرية العربية وسعيها في تحريره من نمذجة السّلطة الكنسية المسيحية وعقائدها المهيمنة، ممّا ضمن للرّواية الاحتفاظ بجماليتها الفنّية، وأسلوبها السردي المشوّق.

5. الطّائفية وتجلّياتها الجماليّة:

عمد يوسف زيدان في روايته عزازيل إلى بثّ حُمولات فكرية انبت عن استراتيجيات فنيّة أطّرت سيرورة الرّواية، لغرض التّعبير عن الخصائص الجماليّة لها، وبلورتها في صورة منطقية تستند على اكتشاف التّناسق الجماليّ الباطني للمادّة الحكائية المسرودة، كما سعى لإيهام القارئ أنّها تجسّد واقعًا ملموسًا في كلّ تفاصيله وحيثياته، ومن خلالها تتشكّل له المعرفة الثّقافية شاملة المتعلّقة بالرّواية، كما تتحقّق فيها عدّة مستويات قرائية، من بينها ما تعلّق بين المتعة السردية والمنفعة الفكرية، ونُورِد فيما يأتي بعض التقاط التي تجسّد الإطار الفنّي ورهاناته الجماليّة، والتي لها خصوصية في تجلّي تيمة الطّائفية؛ ومن ذلك فقد اختار يوسف زيدان عنوانًا مركّزًا ودقيقًا في ظاهره، يتّسم بالكثافة اللّغويّة، الإيجازية في المبنى الإلماحية في المعنى، والبساطة في التّركيب، ينفتح على أكثر من قراءة، كما أنّه يحمل في طياته العميقة العديدَ من الحمولات الدّلالية ذات إيحاءات تستند على المغايرة، غنيّ بعناصر التّأمّل والإثارة، والتّشويق السّردي الذي يلعب دورًا مهمًّا في جذب انتباه القارئ، ومعرفة ما يقوم عليه محتوى النّصّ الرّوائي، وبذلك يفتح لغزًا من الألغاز الغامضة، تدفعنا إلى طرح أسئلة تهدف للوصول إلى إجابات محتملة تستند إلى ملامح متنوّعة، فيتمّ تأويلها من خلال ما جاء في عمق تفاصيل النّصّ من خطاباته الواقعية العنيفة والمتخيّلة والتّاريخية المهمّشة، وتقنياته السّردية، وهذا الحضور الملتحم تولّد عنه اكتمال خصوصية الوعي الجمالي للرّواية .

فكما هو معروف في الثّقافات الخاصّة بالدّيانات السّماوية منها المسيحية، أنّ "عزازيل" اسم من أسماء إبليس المخلوق من الجنّ، ويخصّ الشّيطان الذي يقوم بإغواء النّاس وإبعادهم عن الخير وكل ما يؤدي إليه، ودفعهم باتّباع هوى النّفس وشرورها، بينما كان حضوره في الرّواية عكس ذلك؛ فلفظ "عزازيل" يحمل منظورا دينيا ملتبسًا بفكر إيديولوجي ثقيل، فهو بعيدٌ عن التمرّد والأذى، وفي الآن ذاته يحمل صفة الشّيطان ووسوسته، ودهاء وفطنة الإنسان، وهنا يمكننا طرح سؤال: أيمكن أن يكون عدوًّا لله بهذه الصّفات؟.

بدا هذا العدوّ اللّعين لله والإنسان في صورة خيالية، بعيدًا عن وجوده في الحقيقة، وهميٌ غير محدّد الملامح هلامي الأطياف، مجهول الأوصاف، فالأمر الوحيد الذي يُعرف به هو الاسم "عزازيل"، والذي منه تحدّدت هويته الشخصية، وأحيانًا أخرى يكون هو نفسه الإنسان "هيبا"، ومن ذلك هذا المقطع السّردي في حديث بين شخصية " عزازيل وهيبا ":

"- يا هيبا، قلت لك مرارًا إنّني لا أجئ ولا أذهب. أنت الذي تجيئ بي، حين تشاء، فأنا آت إليك منك وبك وفيك، إنّني أنبعث حين تريدني لأصوغ حلمك، أو أمدّ بساط خيالك، أو أقلّب لك ما تدفنه من الذّكريات. أنا حامل أوزارك وأوهامك ومآسيك، أنا الذي لا غنى لك عنه، ولا غنى لغيرك.

- هل بدأت ترنيمة التّمجيد، لذاتك الإبليسية؟"[24] يحيل هذا المقطع على تماهي ذاتية السّارد "هيبا" مع شخصية "عزازيل" الوهمية، والذي لا يفارقه، ويلجأ إليه ويستحضره في كلّ المواقف لكتابة كلّ ما شاهده وعايشه أثناء رحلته الطويلة، ومن خلاله استطاع البوح بكلّ ما هو خفيّ ومستور؛ وبهذا يدلّ العنوان في علاقته مع أحداث الرّواية على فضح المنطوق السّردي، وعلى موقف السّارد "هيبا" الذي يظهر رافضًا كلّ المعطيات الفجائعية التي من شأنها أن تنمّي الفكرة الطّائفية وتحقيق خرابها المأساوي، وبذلك يعدُّ "عزازيل" رمز القوّة والاختلاف عن كلّ المعتقدات السّائدة، كما يمثّل حالةً من الرّغبة في استقصاء كلّ السّياقات المعتمة من التّاريخ والدّين، وبهذا فهو يحيل مباشرةً على إرادة المبدع - يوسف زيدان- في التّفكير النّقدي والتّحرّر من المفاهيم المنغلقة، والمتعلّقة بالدّلالات الدّينية والاجتماعية والثّقافية بالإضافة إلى التّخلّص من المفاهيم التّقليدية العسيرة وقيم الجدل القائمة آنذاك.

من هذه المفارقات تحقّق الغاية الجمالية للعنوان، الذي تغلّف بالمراوغة الاستعارية، واللّغة السّردية القائمة على العدول والانزياح. ومع ذلك تبقى هناك مسافات خطابية مجهولة تتميّز بالإشارات الرّمزية الموحية، التي بدورها تبرز عملية التّأثير الجمالي. ومن زاوية أخرى، فقد ركّز يوسف زيدان على بناء درامية أحداث روايته، وعلى رسم مواقف شخوصه وبالتّحديد على موقف بطله- هيبا- وكيف استطاع أن يجسّد الاحتمالات الحكائية، لغرض إبراز نقط الجدال الحادّ والصّراع فيها، عبر الحوارات التي جرت بين الشّخصيات، وبين شخصية- هيبا- مع ذاته، حول الصّراع الدّيني المذهبي بين الطّوائف المسيحية في مصر والمشرق العربي، ممّا أدّى إلى تشكّل درامية الرّواية، وزيادة في تكثيف دلالات التّفاعل للمرجعيات الغائبة في النّصّ، المبرهنة بالحجج والأدلّة الدّينية، ومن ذلك مقتل الجميلة والعالمة – هيباتيا- على أيادي الرّهبان والتّمثيل بجسدها؛ فيصف - هيبا- ذلك المنظر بكلّ حسرة وندم، فيقول: " سحبها بطرس

من شعرها إلى وسط الشّارع، وحوله أتباعه من جُند الرّبّ يهلّلون. حاولت هيباتيا أن تقوم، فرفسها أحدهم في جنبها، فتكوّمت، ولم تقو على الصّراخ، أعادها بطرس إلى تمدُّدها على الأرض بجذبة قويةٍ من يده الممسكة بشعرها الطّويل. الجذبة القوية على الأرض انتزعت خصلات من شعرها، فرماها، نفضها من يده، ودسّ السّكين في الزُّنّار الملفوف حول وسطه.. ومن خلفه أخذ جُندُ الرّبّ يهتفون هتافه، ويهلّلون له وهو يجرُّ ذبيحته."[25] فقد عصف الإرهاب الدّيني بهذا الجسد البريء وفعل فيه ما يشفي غريزته، وفرض قوّته، والذي تكوّن من ثوابت فعلية في النّصّ، فتناسقت معه الحمولات الفكرية، والمرتكزات الحاضنة للتنوّعات الدّرامية بكلّ امتداداتها المتشكّلة من حالات الحبّ والعطاء، ومواقف العداء والعنف، وملامح الحزن والأسى، وخيّبات الغدر و الخيانة، وثنائية الحقّ والباطل، فبرز لنا سرد تخيّلي ملتحم، فكوّن خطابًا أدبيا دراميًا، واستراتيجية جماليةً معا.

كذلك من المراوغات الفنيّة البارزة في هذه الرّواية أيضا، والتي بلورت جماليتها، خلق – يوسف زيدان- حيل سردية منها ما تمثّل في لعبة التّرجمة، حيث أورد في مُقدّمة المترجم أنّ هذا العمل عبارة عن ترجمة بغلة سُريانية قديمة لمجموعة من اللّفائف أو الرّقوق وجِدت منذ زمن بعيد، وعددها ثلاثون رقّ، وأنّها من تأليف الرّاهب المدعو- هيبا- فيقول السّارد في بداية الرّقّ الأول والمعنون ب(بدء التّدوين): "أنت وحدك يا إلهي الرّحيم، لك المجد، تعلم أنّني اقتنيتُ هذه الرّقوق قبل سنين، من نواحي البحر الميّت، كي أكتب فيها أشعاري ومناجاتي لك في خلوتي."[26]ومن هذه البداية يتّضح للقارئ أنّ هذا العمل يقدّم ترجمة ذاتية لحياة شخصية الرّاهب المصري هيبا، ويتوهّم أنّ الرّواية مترجمة عن غير اللّغة العربية.

يُورد أيضًا في مقدّمة المترجم، أنّ هذه الشّخصية غير موجودة في الواقع فيقول: " وقد اجتهدتُ في التّعرّف إلى أيّة معلومات عن المؤلّف الأصلي، الرّاهب هيبا المصري، إضافةً لما رواه هو عن نفسه في روايته، فلم أجد له أيّ خبر في المصادر التّاريخية القديمة. ومن ثمّ، فقد خَلت المراجع الحديثة من أيّ ذكر له. فكأنّه لم يوجد أصلا، أو هو موجود فقط في هذه(السّيرة)التي بين أيدينا."[27] ومن هنا يتّضح لنا أنّ الرّوائي لم يستطع التّنصّل من توثيق التّاريخ المؤسّساتي، حيث استثمر من وقائعه التّاريخية هذه السّيرة الرّوائية، وجعل منها ركيزة أساسية لتفسير أحداثها، من دون أيّ تطابق تامّ معها، وذلك بالمحافظة على ابتداع شخصيات ورقية متخيّلة، وعبّرَ عن حياة بطله وتجاربه، وتقمّص الدّور بتجسيده لأفكار ومعتقدات الطّائفة الدّينية المسيحية، غير أنّ المؤلّف يوسف زيدان مسلم الدّيانة.

من ثمّ حتّى لا تكون مجرّد وثيقة تاريخية محضّة لا أكثر، وبهذا حافظت الرّواية على خطابها الجمالي الذي تأتّى بفعل سيرورة التّخييل، ووسائطه السّردية، وهذا ما يخضع لقراءة النّصّ قراءة ثقافية، بعيدًا عن شكله السّردي لأنّه" لم يعد الشّكل الرّوائي مؤرّقا من مؤرّقات المبدع، فالموضوع هو المؤرّق الرّئيس، في حين يكتفي الرّوائي بالاستيفاء النّسبيّ لعناصر الرّواية."[28] ولذا فهنا تغدو الكتابة السّردية نسيجًا نصّيًا للتخفّي، ونوعًا من التّحايل الذي

يلغي تنظيم ترتيب صيغ القراءة، ويكون ذلك خلف أقنعة مجازية، توهمنا بمدى صدقها في تمثيل الواقع؛ ولعبة التّرجمة كانت حاجزًا توارى خلفه الرّوائي، ووفّق فيه إلى حدٍّ بعيد، غير أنّه يشير إلى أنّ تلك الرّقوق القديمة حاول ترجمتها وتحويرها إلى رواية، ومن ذلك يقول المبدع يوسف زيدان:" قد جعلتُ فصول هذه (الرّواية) على عدد الرّقوق التي هي متفاوتةُ الحجم؛ بطبيعة الحال. وقد أعطيتُ للرّقوق عناوين من عندي، تسهيلا لقارئ هذه التّرجمة التي يُنشر فيها هذا النّصّ النّادر لأوّل مرة."[29]ومن هنا يسقط كلّ شيء، فيبدو هذا النّصّ السّردي من وحي فكره، ونسيجه الخاصّ.

6. الخاتمة:

تناولت هذه الدّراسة البحثية موضوع الطّائفية في الرّواية العربية المعاصرة، لغرض فكّ اللّبس الذي يعتري هذا المفهوم، عبر تقصّي تجلّياته على مستوى المتن الحكائي في رواية - عزازيل- حيث ركّزت الدّراسة على الجانب التّطبيقي وجعلته هدفها الأسمى، وعليه ومن خلال ما تقدّم ذكره، نصل إلى جملة من النّتائج، أهمّها:

- تداخل مفهوم الطّائفية مع عدّة علوم وتشرّب منها، كما تباين مع عدّة مصطلحات قريبة منه، وهو مصطلح جديد في ساحة الثّقافة العربية، تشكّل على مرجعية إثبات مركزية الذّات الفردية في مقابل الآخر المختلف عنها، في هويتها وانتمائها ومعتقداتها ودينها وانتقل بهذه الدّلالة إلى مجال الأدب.

- نشأت ظاهرة الطّائفية بسبب عوامل سياسية، اجتماعية، دينية، تاريخية، وصراعات مع حكّامها، ممّا دفع بالرّوائيّين العرب التّعاطي معها، وإدراجها في نصوصهم الرّوائية والتّعبير عن كلّ آرائهم وموقفهم، وتجسيد أحلام الجيل الصّاعد، وذلك من أيّ مراقبة أو خوف من سلطة معيّنة.
- ظاهرة الطّائفية من الموضوعات الرّئيسية التي طرقت باب روايات الألفية الثّالثة، مسايرةً بذلك قضايا الواقع العربي الرّاهنة ومعطيات الحداثة وما بعدها؛ وبذلك أصبح النّصّ الرّوائي الوجه الآخر للتّعبير عنها والبديل المعرفي المفقود، وفيه يُبدي الأديب رأيه وموقفه بكتابة سردية تخيلية توازي العالم الحقيقي وأحيانًا أخرى تفوّقه وتكشفه.
- تطرّقت رواية "عزازيل" للكاتب يوسف زيدان لظاهرة الطّائفية من منظور ديني، حيث قامت بتوضيح أسبابها والنّتائج الوخيمة التي أدّت إليها، والتي أثّرت بشكل سلبي على الذّات الفردية، والمجتمعات المصرية، والعربية.
- استطاع يوسف زيدان في روايته أن يخوض في القضايا المعاصرة، من خلال التّعمّق في قراءة فترة زمنية من التّاريخ المصري القديم، وتسليط الضّوء على الجوانب المظلمة منها، والتّركيز في بعض أجزائه على المقصيّ منه، ثمّ إعادة ترميمه في إطار المتخيّل السّردي الذي لا ينفصل عن الواقع الطّبيعي ويتّصل به فنّيا.
- تعمّق يوسف زيدان في التّمثل لقضايا ظاهرة الطّائفية من كلّ جوانبها وخاصّة السّلبية، ليوصل لنا في الأخير أنّ هناك تعايشًا سلميًا بين الطّوائف الدّينية، وتقبّل الآخر المختلف عن الأنا في كلّ حالاته، والدّعوة للحوار الدّيني ويجب نبذ التّعصّب الطّائفي.
- معرفة يوسف زيدان الواسعة بقضايا الدّين المسيحي، والإحاطة به وتسليط الضّوء على وقائع التّطرّف الدّيني عند طائفة المسيح العرب المصريّين، والذي يمثّل العديد من اتّجاهات الطّوائف الأخرى كاليهودية.
- أتاحت سمة البحث عن الذّات واكتشاف المستوى الإنساني فيها، للبطل" هيبا" في تمرير المسكوت عنه، وكشفه بصوت صارخ، ومن خلاله جنح يوسف زيدان فيه لإثبات الوعي الفنّي الجمالي المتكوّن من العناصر الفنّية والمعرفية، والفكرية، والأيديولوجية، ومن خلاله تشكّل المضمون القيمي للرّواية.

ويمكن القول، إنّ ما يكتنف الطّائفية من غموض في الحدود والمفاهيم، ليس من السّهل تجاوزه، فلا يزال هذا الموضوع بحاجة ماسّة للمزيد من الدّراسات، التي تهدف إلى إضاءة مختلف جوانبه داخل المتون الحكائية العربية بمختلف أجناسها.

7. قائمة الإحالات:

1- كاظم شبيب: المسألة الطّائفية /تعدّد الهويات في الدّولة الواحدة، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص21.

2- عزمي بشارة: الطّائفة والطّائفية: من اللّفظ ودلالته المتبدّلة إلى المصطلح السّوسيولوجي التّحليلي، مجلّة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة، عدد23، 2018، ص02.

3- برهان غليون: المسألة الطّائفية ومشكلة الأقلّيات، دار الطّليعة، بيروت، ط1، 1979، ص20.

4- محمدي عامل: في الدّولة الطّائفية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط3، 2003، ص326.

5- أمارتيا صن: الهوية والعنف- وهم المصير الحتمي- ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 2008، ص11.

6- نبيل سليمان : الصّراع الأهلي في الرّواية العربية- الثّقافة العربية في القرن العشرين- مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2 2013 ص 1049.

7- عبد الكريم بكّار: حول المنهج- أسس ومفاهيم للتّفكير المستقيم- دار وجوه للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ط1، 2012، ص24.

8- شهلا العُجيلي: الهوية الجمالية للرّواية العربية- رؤية ما بعد استعمارية- منشورات: ضفاف، مجاز، الاختلاف، بيروت، عمّان، الجزائر،ط1 2020، ص125.

9- يوسف زيدان: عزازيل، دار الشّروق، القاهرة، مصر،ط1، 2008.ص 59 .

10- المصدر نفسه، ص 306.

11- المصدر نفسه، ص 310.

12- المصدر نفسه، ص 191.

13- عبد الله إبراهيم: التّخيّل التّاريخي- السّرد، والإمبراطورية، والتّجربة الاستعمارية- المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1 2011، ص، 158.
14- يوسف زيدان: عزازيل، ص،16.
15- المصدر نفسه، ص181.
16- المصدر نفسه، ص181.
17 - المصدر نفسه، ص210.
18- مصطفى عطية جمعة: ما بعد الحداثة في الرّواية العربية- الذّات- الوطن- الهوية- منشورات مؤسّسة الورّاق، عمّان، ط1، 2011، ص 179.
19- يوسف زيدان: عزازيل، ص،51.
20- المصدر نفسه، ص322.
21- المصدر نفسه، ص80.
22- المصدر نفسه، ص،206.
23- كمال الرّياحي: فنّ الرّواية- الذّات، الهامش، العنف- دار الجزائر تقرأ ، الجزائر، د ط، 2018، ص44.
24- يوسف زيدان: عزازيل ،ص127.
25- المصدر نفسه، ص197-198.
26- المصدر نفسه، ص 15.
27- المصدر نفسه، ص 10.
28 -شهلا العُجيلي: الهوية الجمالية للرّواية العربية- رؤية ما بعد استعمارية- ص158.
29- يوسف زيدان: عزازيل، ص12.

8. قائمة المصادر والمراجع:

1. أمارتيا صن: الهويّة والعنف- وهم المصير الحتمي- ترجمة: سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 2008.
2. برهان غليون: المسألة الطّائفية ومشكلة الأقلّيات، دار الطّليعة، بيروت، ط1، 1979.
3. شهلا العُجيلي: الهوية الجمالية للرّواية العربية- رؤية ما بعد استعماريّة- منشورات: ضفاف، مجاز، الاختلاف، بيروت، عمّان، الجزائر،ط1 2020.
4. عبد الكريم بكّار: حول المنهج- أسس ومفاهيم للتّفكير المستقيم- دار وجوه للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ط1، 2012.
5. عبد الله إبراهيم: التّخيّل التّاريخي- السّرد، والإمبراطورية، والتّجربة الاستعمارية- المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1 2011.
6. عزمي بشارة: الطّائفة والطّائفية: من اللّفظ ودلالته المتبدّلة إلى المصطلح السّوسيولوجي التّحليلي، مجلّة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة، عدد23، 2018.
7. كاظم شبيب: المسألة الطّائفية /تعدّد الهويات في الدّولة الواحدة، دار التّنوير، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
8. كمال الرّياحي: فنّ الرّواية- الذّات، الهامش، العنف- دار الجزائر تقرأ، الجزائر، د ط، 2018.
9. مصطفى عطية جمعة: ما بعد الحداثة في الرّواية العربية- الذّات- الوطن- الهوية- منشورات مؤسّسة الورّاق، عمّان، ط1، 2011.
10. محمدي عامل: في الدّولة الطّائفية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط3، 2003.
11. نبيل سليمان : الصّراع الأهلي في الرّواية العربية- الثّقافة العربية في القرن العشرين- مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2 2013.
12. يوسف زيدان: عزازيل، دار الشّروق، القاهرة، مصر،ط1، 2008.